انتشار المذهب المالكي في الجزائر

متى دخل المذهب المالكي الجزائر؟

كان من الطبيعي أن يدين الجزائريون بعد الفتح الإسلامي بما وصل إليهم من تعاليم الإسلام التي أخذوها من الفاتحين الأوائل، كما كان من الطبيعي أن تكون تلك التعاليم غير مصبوغة بالطابع المذهبي، وإنما مرتبطة مباشرة بنصوص القرآن والسنة والمأثور عن الصحابة والتابعين.

وبعد ظهور المذاهب الفقهية، كان أولها انتشارا في إفريقية هو المذهب الحنفي، بداية من تونس، حيث ما لبث أن غلب عليها.

وعرف المذهب المالكي طريقه نحو بلاد إفريقية والغرب الإسلامي على يد أبي الحسن علي بن زياد التونسي العبسي تلميذ مالك، هذا الأخير كان أول من أدخل بلاد المغرب الموطأ وفسر لأهلها قول مالك ولم يكونوا يعرفونه من قبل[1].

وقصة ذلك؛ أن علي بن زياد هذا كان من الرعيل الأول من المغاربة الذين ارتحلوا لطلب العلم إلى الحجاز، وأخذ هناك عن عالم المدينة المنورة الإمام مالك بن أنس، حيث سمع منه الموطأ وفتاوى ومسائل. كما أخذ عن كل من سفيان الثوري والليث بن سعد وابن لهيعة وغيرهم.

وبعد عودته من رحلته إلى المشرق العربي، حمل معه (موطأ) الإمام مالك و(جامع) سفيان الثوري. وجلس للتدريس وإفادة طلبة العلم، وذلك من خلال الموطأ، الذي كان يقوم بشرحه واستخراج الأحكام من أحاديثه.

قال الشيخ الشاذلي النيفر: "وهذه المدرسة التي وضع لبنتها علي بن زياد وهي مدرسة مالك بن أنس، فهو الذي أدخل مذهبه هذه الديار المغربية وعرف به وشرحه للناس، وبين قواعده حتى اقتنعت به الأفكار ولم يجتذبها إليه بسلطان ولا نفوذ"[2].

وقد كان ممن تتلمذ على يد علي بن زياد في تونس بعد عودته؛ كل من البهلول بن راشد وعبد الله بن غانم وعبد الله بن فروخ، حيث أخذوا عنه موطأ مالك والجامع الكبير لسفيان الثوري. ثم ظهر بعد

---

1 رياض النفوس، لأبي بكر المالكي، ج: 1، ص: 215

2 مقدمة تحقيق كتاب الموطأ برواية علي بن زياد، ص: 35

ذلك لهؤلاء الثلاثة أن يرتحلوا إلى المشرق وهناك أخذوا الكتابين عن الإمام مالك والإمام سفيان الثوري مباشرة. وبعد عودتهم إلى إفريقيا جلسوا للتدريس والتعليم والتفقيه على المذهب المالكي[1].

وإضافة إلى هؤلاء العلماء الثلاثة؛ كان هناك عدد آخر من العلماء تتلمذوا هم الآخرون على الإمام مالك، وشاركوا في نشر مذهبه بإفريقية، ومنهم: ابن أشرس الأنصاري، وأبو علي بن شقران بن علي القيرواني، وأبو محمد عبد الله بن عمر بن غانم الرعيني، وأسد بن الفرات، وأبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي، وأبو محمد عبد الله بن أبي حسان اليحصبي، وأبو عبد الرحمن بن ثوبان الرعيني، وصقلاب بن زياد الهمداني، وأبو عون معاوية بن الفضل الصمادحي، وأبو عثمان المعافري، ويزيد بن محمد الجمحي، وعمر بن الحكم اللخمي، وأبو القاسم الزواوي، وأبو الخطاب محمد بن عبد الأعلى الكندي، وعمر بن سمك بن حميد، وأبو طالب الأبزاري، وأبو عبد الله بن زرارة، وأبو الحجاج الأزدي، والحارث بن أسد القفصي، وعبد المؤمن بن المستنير الجزري، وعلي بن يونس الليثي، وغيرهم.. وهؤلاء كلهم تتلمذوا لمالك وأخذوا عنه مباشرة، فلما عادوا إلى القيروان بثوا علمهم بين الناس، وما زال المذهب ينتشر ويتسع امتداده، إلى أن جاء سحنون بن سعد، فغلب في أيامه، وفض حلق المخالفين[2].

قال القاضي عياض رحمه الله: "وأما إفريقية وما وراءها من المغرب، فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين [يعني بهم الأحناف] إلى أن دخل علي بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك، فأخذ به كثير من الناس، ولم يزل يفشو إلى أن جاء سحنون فغلب في أيامه وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه، فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا"[3].

وكان الفقيه سحنون هذا ومعه الفقيه ابن سعيد التنوخي، قد تتلمذ عليهما عدد من الجزائريين في القيروان التي كانت حاضرة مشهورة في بلاد إفريقية، وهم الذين انطلقوا بعد ذلك بالمذهب المالكي ونشروه في أمهات المدن الرئيسة بالجزائر، نذكر من أولئك الجزائريين:

- النعمان بن المنذر بمجانة، وكان من الزهاد، قيل إن أستاذه سحنون عرض عليه القضاء فامتنع.
- وعلي بن الصبار قاضي ميلة، تلميذ سعيد بن الحداد المتخرج من مدرسة سحنون، والذي اشتهر بنشر مذهب مالك، حيث إنه كان أفقه وأعلم أهل زمانه[4].

---

1 تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، لشرحبيلي، ص: 32- 35.

2 محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، لعمر الجيدي، ص: 22

3 المدارك، للقاضي عياض، ج: 1، ص: 26

4 مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ، مقال للأستاذ المهدي البوعبدلي رحمه الله، مجلة الأصالة الجزائر، السنة 2، العدد 7، صفر ربيع الأول 1392 ه/ مارس أبريل 1972 م، ص: 6

ولعل من أهم كتب المالكية التي أدخلها الجزائريون من القيروان بتونس؛ كتاب "المدونة الكبرى" على يد أبي إسحاق بن عبد الملك المشلوني البسكري، الذي سمعها من سحنون.

أسباب انتشار المذهب المالكي ورسوخه في الجزائر:

يمكن إرجاع انتشار المذهب المالكي في الجزائر ورسوخه في البلاد على مدى القرون الطويلة السابقة، إلى جملة من الأسباب، تندرج ضمن نوعين[1]:

النوع الأول: الأسباب المتعلقة بالمذهب وصاحبه:

1-مكانة الإمام مالك رحمه الله، حيث اشتهر بالعلم والعمل والزهد والورع، وكان مضرب المثل في الحفظ والإتقان وجودة الفقه والاجتهاد، إضافة إلى قربه زمنيا من عهد النبوة إذ كان من أتباع التابعين.

2-مكانة المدينة المنورة؛ فهي مهبط الوحي ومهاجَر النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ورث أهلها علم النبوة وتناقلوه جيلا بعد جيل إلى عصر مالك، مع علو في الإسناد.

3-فضل فقه مالك وتميز أصوله في الاستدلال، واعتماده على الحديث والأثر، والتقليل من الرأي والقياس.

النوع الثاني: الأسباب المتعلقة ببلاد المغرب عموما والجزائر خصوصا:

1-الرحلات العلمية للمغاربة عموما نحو الحجاز والمدينة المنورة، والأخذ عن الإمام مالك مباشرة في البداية، ثم عن تلاميذه بعد ذلك. هذه الرحلات كان لها دور بارز في نشر المذهب المالكي.

2-وصول مؤلفات الإمام مالك ومنها : الموطأ والمدونة، وانتشارها في بلاد المغرب.

3-التوافق والتشابه بين طبيعة مذهب الإمام مالك وطبيعة المغاربة، فالإمام مالك كان يلتزم بالوقوف عند النصوص، ولا يميل إلى الجدل والاستدلال والقياس، وهذا الالتزام وجد صدى في نفوس المغاربة، مما أدى إلى انتشار المذهب بينهم.

4-رغبة الحكام في نشر المذهب وحرصهم على التمكين له، باعتباره وسيلة من وسائل الاستقرار والوحدة، وذلك عن طريق تعيين أبرز فقهائه في المناصب الدينية والإدارية المختلفة.

---

1 أعلام المذهب المالكي في الجزائر ودورهم في تأسيس وبناء المرجعية الفقهية، إلياس بن عمراوي، بحث منشور في مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، المجلد 18 ، العدد 36 ، ص: 13، 14.